جغرافية بابل واشور (تابع ما قبله)

لجناب الاديب جميل افندي نخلة المدوّر

اما موقع نينوى فالمؤرّخون فيهِ على اقوال اشهرها ما ذهب اليهِ هيرودوطس واسترابون من انها كانت على عدوة دجلة شرقًا وهو موافق لما تقدم من رواية موسى عم في الكلام على حدّ مملكة اشور وهو الصحيح. ولا يُعلَم من امر مساحتها الاّ ما ورد في سفر يونان حيث يقول ما صورتهُ ان نينوى مدينة كبيرة لله مسيرتها مسيرة ثلاثة ايام. الاّ ان في هذا الكلام ايهامًا لا يخفى فلا يُدرَى هل المراد بالمسيرة طول المدينة كما هو المتبادر ام محيطها ام المدّة التي تُقطَع في مطافها كما قال بكلٍّ جماعة من المفسّرين. ولا يخفى ان الاوّل فاحش جدًّا ولم يُنقَل فيما علمنا ان مدينة بلغ طولها هذه المسافة. والاخير بعيد عن ان يكون هو المراد لقلّة جدواهُ في تقدير المساحة فلعلّ المقصود هو الثاني والله اعلم

ثم ان الذي يتحقق من التاريخ ان نينوى لم تكن دارًا للمُلك قبل الالف قبل النصرانية وكانت قبلها مدينة راسن هي اعظم مدينة في اشور كما يستفاد من سفر التكوين من الموضع المشار اليهِ قيل هذا. وقد خربت نينوى مرتين عن آخرها المرة الاولى سنة ٧٨٨ قبل الميلاد على يد ارباش المادي وبطيزيس الكلداني وكانت بينهما محالفة فزحفا عليها بجيوشهما والمالك فيها يومئذٍ سردنابال وكان ملكًا جبانًا واني الهمّة ضعيف الراي منقطعًا الى مجالسة النساء وسماع الاغاني. فلما طرقهُ خبر العدوّ وايغالهم في ارضهِ افاق من لهوهِ فحشد لهم وخرج عليهم بجموعهِ والتحم القتال بين الفريقين فكانت الغلبة في اوّل الامر لاشور ثم كانت الكرّة للعدوّ فظهروا عليهم ودارت في الاشوريين رحى القتل فابادوا منهم خلقًا كثيرًا خلا من اسروهُ. فنكص سردنابال على اعقابهِ حتى اتى المدينة فدخلها بمن معهُ واعتصم بها وجدّ العدوّ على اثرهِ فحصروهُ بها زمنًا مديدًا تواترت فيهِ الحرب بين الفريقين وقُتِل من الجيشين عدد لا يحصى. واجلت العاقبة عن قهر سردنابال فدخل العدو البلد واسرفوا في القتل والنهب واستباحوا كل من صادفوهُ بحد السيف. فلما رأى سردنابال ما حلّ بهِ وبقومهِ جمع حطبًا والقى عليهِ امتعتهُ واموالهُ وجواهرهُ واضرم فيها النار ثم دخل هو واولادهُ ونساؤهُ في جوف اللهيب وتبعهُ من يتصل بهِ من رهطهِ وحشمهِ فكان آخر العهد بهم. واتى العدو على المدينة بالاحراق والتخريب ولم يخرجوا منها الاّ وقد غادروها كالرماد

وبعد مضيّ ما شاء الله من الزمان انتعش الاشوريون من كبوتهم تلك ورجع اليهم ملكهم واستقلالهم وعادوا فرمموا مدينة نينوى وردوا اليها سرير الملك الى ان قام سخاريب الذي سبق الاماع الى شيء

من شانه فزادت به نينوى عزّة وفخامة وتناهى حالها في الجلالة . وله على بعض الآثار هناك ما معناهُ اني قد اعدتُ بناءَ جميع عظائم نينوى دار سلطنتي ومستقرّ ملكي وجدّدتُ شوارعها القديمة وما كان منها ضيّقًا وسّعته وحوّلت المدينة من ساحة الخراب الى مثل بهاء الشمس اه . وكان لسنحاريب قصرٌ في وسط المدينة بناهُ له ولمن يخلفه على سرير اشور وكان من احسن ابنية نينوى بهجةً وزخارف وانها احكامًا واوثقها متانةً قد افرغ فيهِ البنّاؤون جهد صناعتهم وسقّفهُ بخشب السرو والارز . ولما فرغ من بنائهِ امر ان يُنقش على احد جدرانهِ ما مفادهُ ان هذا القصر سيصبح حينًا قديم العهد جدًّا فياخذهُ كرور الاحقاب ويغيّرهُ توالي العصور فانتدم الى من يتولّى عهد هذا الملك من بعدي ان يُعنى بتجديد ما يرثهُ من بنائهِ وتعهّد ما فيهِ من الصور والمشاهد وانا شدهُ ان يطرّس على جميع الكتابات القائم بها تذكاري كلما طمس شيءٌ منها اعاد رسمهُ . اقول طوبى لمن يأتمر بهذا وعليهِ رضوان اشور وعشتار الالهين العظيمين والويل لمن نبذ هذه الوصيّة ظهريًّا واشور ربي جلّ جبروتهُ ينزل بهِ ضرباتهِ الشديدة وسخطهُ العظيم ويخلعهُ عن ملكهِ ويحطم صولجانهُ ويسلبهُ سلاحهُ . انتهى

واستمرّت نينوى على حالها تلك من علو الشان ونفوذ السطوة الى ان خربت المرة الثانية سنة ٦٠٦ قبل الميلاد وقيل سنة ٦٣٥ على اختلافٍ سنورد تحقيقهُ فيما بعد . وخلاصة ما كان من خبرها انها لما امتدّت شوكتها وقوي عضدها كانت الواقعة بينها وبين الماديين لما بين الفريقين من الحزازات القديمة فقهرتهم وضربت عليهم الجزية فكانوا يحملونها كل سنة الى نينوى . فكان ذلك في انفس ملوك مادي الى ان افضى امر الملك الى كياكصر فعزم على مناهضة الاشوريين وبعث الى نبوبولاصر ملك الكلدان يستجيش بهِ ويذكّرهُ ما بين اسلافهما من الولاء على ما سبق ذكرهُ . فاجابهُ نبوبولاصر بالرجال والاهبة وحشد كياكصر قومهُ ونزل على نينوى فحاصرها وعلى سربرها يومئذٍ اساراقوس فضايقهُ اشد المضايقة وقويت صدمتهُ لها فاستفحلها عنوةً واعمل فيها السيف والنار وفتك في اهلها فتكًا ذريعًا فكثر فيهم القتل والسبي والنهب وانتشر الخراب في المدينة اياماً متوالية حتى دكّت عن آخرها دكةً واحدة وعادت كأن لم يسبق بها عهد وفرّ من افلت من الاشوريين فتشتتوا في الآفاق ولم يجتمعوا بعدها . واما الملك فكان من امورهِ انهُ لما رأى العدو في المدينة اشفق من وقوعهِ في ايديهم والتنكيل بهِ فقتل نفسهُ بسلاحهِ وانتهز منذ ذاك ملك اشور آخر الدهر

هذا جملة ما انتهى اليهِ اهل البحث من وصف هذه المدينة العظيمة وان هو الاّ وشلٌ من بحر او ثمدٌ من قطر وقد بقي وراء تلك المشاهد الخربة والمناظر الموحشة من العظمة والاقتدار والحكمة والثروة والعزّة والجمال والبراعة والاتقان ما لا يسبر الاّ الله تعالى وحدهُ . واغرب ما هنالك ان هذه المدينة مع كل ما بلغت اليهِ اوان عزّها من الشهرة والفخامة لم يذكرها احد من متقدمي المؤرخين ولم تلبث بعد

خرابها ان صارت نسيًا منسيًا حتى ذهبت عنا جميع اخبارها واصبحت معرفة احوالها موقوفة على توهُّم تلك الجاهل واستنطاق صداها . وقد عاين زينوفون تلك الاراضي بعد خرابها بقرنين ولم يحكِ شيئًا من وصف ما رآهُ من نينوى وكذا مؤرخو الاسكندر لم يوردوا لها ذكرًا مع انها كانت قبلهم بزمن يسير من اعظم مدن العالم . وفي الجملة فانهُ لم يُعلَم احدٌ نقل عنها شيئًا قبل القرن العاشر للميلاد واوّل من وصفها بنيامين تودالوس اليهودي وقد قدم الموصل فروى عنها وعن الآثار التي شاهدها اذ ذاك كلامًا طويلاً يقول في جملتهِ والموصل التي كانت قديمًا تُعرَف باشور الكبرى في اعظم مدينة بفارس يسكنها سبعة آلاف من اليهود او يزيدون قليلاً وهي مدينة ذات جمال وسعة موقعها على عدوة دجلة وهو الفاصل بينها وبين نينوى . قال ونينوى هذه مدينة قديمة قد آلت الى تمام الخراب والى الآن آثار سورها ظاهرة وهو مناهز الدروس والامحاء وهناك آثار عديدة للاشوريين اصحابها يستدل بها على انها كانت من العزّة والحسن بمكان اه

ويُعرَف موقع نينوى اليوم بقيونجك وهو اسم تلٍّ هناك يبلغ محيطهُ ٢٥٦٣ يردًا وارتفاعهُ ٤٣ قدمًا وحواليهِ اخربة مبثوثة على مدًى متسع يحيط بها اثر سور يبلغ طولهُ من الغرب ٢٦٠٠ يرد ومن الشرق ٢٥٠٠ يرد ومن الشمال ٣٠٠٠ يرد ومن الجنوب ١٢٧٠ يردًا . وعلى طول الجهة الغربية منهُ اثر سورين آخرين يلفان السور المذكور من داخل ولا يرى ذلك في الجهات الثلاث الأُخَر وهو من جملة تلك الغرائب . واوّل من احتفر في قيونجك موسيو بوتا الفرنساوي في منتصف القرن الحالي وسنعود الى ذكرهِ عند الكلام على اخربة خرساباد . وجاء بعدهُ اللورد لايرد وهو حالاً سفير انكلترا بالاستانة فامعن في الحفر والبحث زمانًا وكان في جملة ما كشفهُ قصر سنحاريب المقدَّم ذكرهُ وهو بناءٌ كبير يُعَدُّ في جملة عظائم تلك الاعصار حتى يقال انهُ لم يكن اعظم منهُ الاَّ ما اشتهر من ابنية بابل وقد بلغ طول حجرة فيهِ مئة وثمانين قدمًا . وكان هذا القصر مزينًا بجميع ضروب الزخرفة وفيهِ كثير من تماثيل الثيران ذات الرؤوس البشرية يبلغ طول الواحد منها نحو عشر اذرع وهناك صور عديدة ومشاهد صيدٍ وغيرها دقيقة الصنعة . وابدع تلك الصور شكلاً واكملها صناعةً صورة سنحاريب ويجانبهِ رجال من بني اسرائيل بشكل دميم وصورة اخرى ثقيلة على عرشهِ وهذه حملها الانكليز الى لندرة . وبعد انصراف لايرد من هناك جاء لِفنُس الفرنساوي سنة ١٨٥٤ فكشف اشياء اخرى اجلُّها قصر لسردنابال الخامس المعروف بأَشُّور بنيبال وجد فيهِ تمثالاً كثيرة فحمل منها جانبًا كبيرًا بقصد ارسالهِ الى باريز فسقط منهُ في دجلة ولم يسلم الاَّ اشياء قليلة في جملتها صورة سردنابال المذكور صاحب القصر وقطَع من الآجرّ عليها كتابة بالقلم المسماري